الفصل الثانى

بتاح حوتب PTAHHOTPE (*)

رائد الفكر الأخلاقى فى مصر القديمة

(*) ألقى هذا البحث فى المؤتمر الثانى للجمعية الفلسفية المصرية الذى عقد بجامعة القاهرة فى الفترة من 10 – 12 يوليو 1990م تحت عنوان "دور مصر فى الإبداع الفلسفى". ونشر بمجلة كلية الآداب – بجامعة الإمارات العربية المتحدة، العدد السابع، 1991م. كما نشر بالعدد الأول لمجلة "الجمعية الفلسفية المصرية" الذى أصدرته الجمعية فى يونيو 1992م.

obeikandl.com

مقدمة :

لاشك لدى أ ى مؤرخ منصف للحضارات فى أن الإنسان المصرى القديم هو صاحب أول إبداع حضارى عرفه التاريخ الإنسانى وبالذات فى مجالى الأخلاق والدين.

فقد شعر المصريون الأوائل بأهمية الضمير الأخلاقى والتصرف طبقا له فكان شعارهم الأساسى الذى رفعوه طوال عصورهم هو التصرف وفقا للعدالة والنظام (ماعت – Maat)، فمنذ أسطورة أيزيس وأوزوريس تلمح شعور المصرى الأول بالإشمئزاز من الحروب، حيث كان ينظر إلى أوزوريس الإله كأمير للسلام؛ فهو – تبعاً للنسخة الأولى من الأسطورة كما يحللها أرمان – لم يحارب الشعوب الأجنبية إلا عن طريق الاقناع، وحين يطالب حورس ابنه بدمه، فإن الأمر لا يسير إلا من خلال العدالة، ومملكة هذا الإله أوزوريس (المبرأ من كل عيب) لا يدخلها إلا المطهرون، وعلى كل واحد أن يثبت أمام الاثنين والأربعين قاضياً للموتى أنه لم يرتكب إثماً قط، وكانت هذه الآثام فى مقدمتها ما هو محرم فى كل مجتمع إنسانى كالقتل والتحريض عليه والسرقة والغش والتزوير والفسق والزنا، ثم يضاف إلى ذلك واجبات أسمى، فعلى الإنسان ألا يكذب وألا يغتاب وألا يتجسس من وراء الأبواب وألا يأكل قلبه أى لا يهلك نفسه فيما لا يجدى من أسى[1].

فى ظل هذه التعاليم الأخلاقية الراقية التى رسخت منذ فجر الحضارة المصرية القديمة ولد بتاح حوتب فى عصر الدولة القديمة وعاش فى حوالى عام 2700 ق. م فى تقدير برستيد[2]، أو فى حوالى عام 2500 ق. م فى تقدير ارمان[3].

وإذا كان هناك خلاف حول الفترة الزمنية الدقيقة التى عاش فيها، فإنه لا خلاف بين المؤرخين على أنه كان يعمل كبيرا للوزراء فى عصر الملك أسيسى

من ملوك الأسرة الخامسة[4].

وقد قدم بتاح حوتب أول وأشهر[5] تعاليم أخلاقية مكتوبة لمفكر فى تلك العصور، ولهذه التعاليم قصة. فقد شعر هذا الوزير المسن بضعفه الناشئ عن تقدمه فى العمر فطلب من الملك أن يأذن له بتعليم ابنه ليقوم بعده بأعباء الواجبات الحكومية، وحتى يمكنه مساعدته فى حياته ويصبح مؤهلا لخلافته بعد مماته، وقد وافق الملك على ذلك، فقام بتاح بنصح ابنه فى كتاب وصلت إلينا نسخته من عصر الدولة الوسطى، وإن كان قد كتب قبل ذلك[6]. وقد أطلق البعض على هذا الكتاب اسم "مخطوط الحكمة"[7]، وأطلق عليه آخرون اسم "الحكم والنصائح"[8]. ولقد اتخذه المصريون فى عهد الدولة القديمة وما بعده معينا للحكم والتعاليم وجعلوا منه أساساً لأصول التربية والسلوك.

وقد احتوى مخطوط هذا الكتاب على ثلاثة وأربعين لوحة أو أربعة وأربعين فى رواية أخرى، والقرطاس الذى وجدت فيه يعرف عند العلماء باسم "بردية بريسى Payrus Prisse" وتشمل كل واحدة منها على نصيحة كتبت عفو الخاطر[9]، فلم يجهد بتاح ذهنه فى محاولة الربط بينها، ولم يبذل جهدا فى ترتيبها أو تنظيمها.

وقد شغل بترجمتها الكثيرون منذ المعلم هيل سنة 1855م، الذى جاءت ترجمته غير واضحة، ثم ترجم شاباس أربعة عشر سطرا منها فى مجلته الأثرية المطبوعة سنة 1858م، ثم ترجمها لوث فى سنتى 1869 و 1870م وعلق عليها، كما ترجمها بردكش وجاءت ترجمته مناسبة[10]. وقد ترجمت إلى العربية فى أكثر من كتاب. فقد نشر ترجمتها كاملة أحمد بك كمال فى كتابه "الحضارة المصرية القديمة" الجزء الأول، وعبدالقادر حمزة فى كتابه "على هامش التاريخ المصرى القديم" بالمجلد الثانى، وسليم حسن فى كتابه "مصر القديمة" بالجزء الثانى، كما ترجمها ضمن ترجمته لكتاب برستيد "فجر الضمير" حيث اعتمد عليها الأخير فى تحليله لفكر بتاح حوتب. ونحن سنستفيد من كل هذه الترجمات العربية فى تحليل فكر بتاح ووضعه فى إطار فلسفى نظرى.

أولاً – رأيه فى المعرفة والفضيلة السياسية :

يبدأ بتاح كتابه بأن ينصح ابنه بالتواضع وعدم التعالى على الناس بسبب المعرفة فيقول : له "لا تكن متكبرا بسبب معرفتك ولا تثق بأنك رجل عالم، فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها، وليس هناك عالم يسيطر على فنه تماماً. وأن الكلام الحسن أكثر اختفاء من الحجر الأخضر الكريم[11]، ومع ذلك فإنك تجده مع الإماء اللائى على أحجار الطواحين"[12].

إن بتاح هنا يقرن بين العلم وقيمة أخلاقية كبرى هى التواضع، فكلما ازداد المرء علماً ازداد تواضعاً، لأنه يكون أكثر دراية بأن طريق المعرفة لا نهاية له، فالمتخصص فى أى علم هو أكثر الجميع معرفة بجوانب النقص فى علمه وبالثغرات التى يجب سدها "فليس هناك عالم يسيطر على فنه تماماً".

لقد وعى بتاح فى النص السابق طبيعة العلم ومشقة طريقه، فليس للعلم نهاية، ومن ثم فلا ينبغى لصاحبه أن يعتقد أنه قد بلغ الكمال، ويتضح منه أيضاً أن المقصود بالعلم لدى بتاح هو الحكمة، ولم يميز ذلك النوع من الحكمة النظرية التى أطلق عليها اسم "الفلسفة" لدى اليونان. أنه يتحدث عن نوع من الحكمة العملية، ولعل ذلك هو ما جعله يقدر كل الناس العالم منهم والجاهل، فالجميع لديه يمكن الإفادة منه، ولذلك طلب من ابنه أن يشاور الجاهل والعاقل، كما قال له أن الحكمة رغم ندرتها إلا أنها قد تكون موجودة لدى من نتصور عدم وجودها لديهم، فرغم "أن الكلام الحسن أكثر اختفاء من الحجر الأخضر الكريم" إلا أنه يوجد "مع الإماء اللائى على أحجار الطواحين".

وينتقل بتاح بنا بعد ذلك إلى الحديث عن ضرورة استخدام العقل فى النظر والتأمل فى كل ما يسمع الإنسان فيقول : "إن المستمع هو الذى يحبه الاله، أما الذى لا يستمع فإنه هو الذى يبغضه الإله. والعقل (أو القلب حسب النص الأصلى وكثيرا ما يذكر القلب بمعنى العقل والفهم)[13] هو الذى يجعل صاحبه

مستمعاً أو غير مستمع. إن ثروة المرء العظيمة هى عقله. فما أفضل الابن عندما يصغى لأبيه، والابن إذا وعى لما يلقيه عليه والده، فإنه لن يخيب فى مشروع من مشروعاته. وعليك أن تعلم من يستمع إليك كأنه ابنك. ومن سيكون ناجحاً فى نظر الأمراء هو من يوجه فهمه، حيثما يقال له لأن أكثر المصائب تنزل بمن لا يستمع"[14].

ورغم أن مفكرنا يعتبر أن العقل هو ثروة المرء العظيمة، إلا أنه لا يرى من العقل – كما هو واضح فى النص السابق – سوى تلك القوة التى يجعل صاحبها قادراً على الاستماع للآخرين والالتزام بنصائح الأب. ومن ثم فالعقل لديه هو العقل العملى الذى يفيد صاحبه فى حياته فيجعله مستمعاً للنصيحة، ملتزماً بتنفيذها.

وقد اعتبر بتاح أن هذا هو مفتاح النجاح فى الحياة العملية التى خصص لها حوالى ثلث نصائحه لابنه، فهو ينصحه كذلك بالتخلق بالحذر فى حضرة العظماء، وبالالتزام بآداب المائدة فى حضرة الرئيس، وقد وصل به الأمر إلى نصحه قائلا فى ذلك "خذ ما يقدم لك عندما يوضع أمامك دون أن تنظر إلى ما هو أمامه، ولا تصوبن لحظات كثيرة إلى الرئيس "أى لا تحملق فيه"[15].

كما نصحه بتجاهل أصل رئيسه ومكانته الاجتماعية السابقة، وبضرورة أن يحترمه طبقاً لما وصل إليه "لأن الثمرة لا تأتى عفوا"[16]، كما نصحه كذلك بالتحلى بالصمت أمامه وبألا يتكلم إلا إذا كان يعلم أنه سيحل المعضلات لأن "صناعة الكلام أصعب من أى حرفة أخرى"[17].

ويتضح مما سبق تركيز بتاح على التحلى بفضيلتى الاستماع والصمت، ويبدو أنهما كانا من الفضائل الضرورية لكل من أراد الترقى والوصول إلى المناصب الإدارية العليا فى الدولة المصرية القديمة. وهى فضائل تنبئ عن اتباع سياسة دنيوية وصفها برستيد بأنها مبنية على اليقظة والفطنة كما أنها لم تلوث بشىء يذكر من العقيدة الميكافيللية[18]، ولست معه فى ذلك خاصة فى قوله بأنها لم تلوث بشىء من العقيدة الميكافيللية، فمن الواضح أن دعوة بتاح إلى

التحلى بالصمت وعدم الكلام إلا عند الضرورة كانت تستهدف غاية هى إرضاء الرئيس واكتساب ثقته بأى وسيلة. ولعل هذا هو ما دعى برستيد نفسه، لأن يضيف فى تعليقه على هذه النصائح قائلا : "من الواضح أن ذلك السياسى المسن كان ذا نظرة خارقة فى انتهاز الفرصة الهامة لمصلحته"[19].

وعلى أى حال، فلقد وعى بتاح ما هو أثمن من التحلى بالصمت أمام الرؤساء، حينما أدرك أن تقلبات الحياة الإنسانية كثيرة، ومن ثم فعلى المرء مهما بلغ من سمو المكانة الاجتماعية والسياسية أن يظل على تواضعه واحترامه للآخرين. وقد عبر عن ذلك حينما نصح ابنه قائلا : "إذا أصبحت عظيماً بعد أن كنت صغير القدر، وصرت صاحب ثروة بعد إن كنت محتاجاً.. فلا تنسين كيف كانت حالك فى الزمن الماضى، ولا تفخر بثروتك التى أتت إليك منحة من الإله (أى الملك)، فإنك لست بأفضل من غيرك من أقرانك الذين حل بهم ذلك"[20].

وهنا نجده يحذر ابنه من المستقبل، إذ أن حياة الموظف الحكومى محفوفة بالمخاطر دائماً، ومن ثم فعليه أن يكون سخياً مع أصدقائه تحسبا لتلك "الأيام التى يمكن أن يأتى بها المستقبل" – على حد تعبيره – إذ لا يجد المرء فى تلك الأيام من يلجأ إليه إلا الأصدقاء.

ثانياً – رأيه فى الخطابة والجدل :

اهتم بتاح بالخطابة والجدل باعتبارهما من الوسائل الضرورية التى لا يستغنى عنها رجل السياسة والإدارة الناجح. وفى كتابه نجده يعلم ابنه كيف يتعامل مع الخطباء قائلا : "إذا وجدت خطيباً فى زمانك سليم العقل أمهر منك فاثن له ذراعك واحنى له ظهرك. أما إذا تكلم هجرا فلا تقصرن حينئذ فى مقاومته حتى ينادى به الناس : أنت إنسان جاهل. ولكن إذا كان مماثلا لك فاظهر بصمتك إنك أحسن منه إذا أخطأ فى الكلام وعندئذ سيمدحه السامعون ولكن اسمك سيعتبر حسناً بين العظماء . . أما إذا كان شخصا حقيرا ليس ندا لك

فلا تغضبن عليه لأنك تعلم أنه تعس . . احتقره وبذلك يؤنب نفسه، وأنه لقبيح أن يضر الإنسان شخصاً محتقراً"[21].

ويبدو من هذه الفقرة أنه يحاول وضع الأسس لكيفية التعامل بين الخطباء، وأول هذه الأسس هو أن يحترم الخطيب من هو أبرع منه فى الخطابة، وثانيها : أن لا يسكت عن هذه البراعة إذا ما استخدمت فى غير موضعها وتعدت الاقناع إلى الهجاء والهجوم، فحينئذ لابد للخطيب الآخر أن يقاومه ويبادله الحجة بالحجة، حتى يقهره ويقنع الناس بجهله. وثالثها : أنه إذا كان كلاهما مماثلا للآخر فى قدراته الخطابية، فإن الأفضلية يمكن أن تبدو من صمت أحدهما حتى يقع الآخر فى الأخطاء. أما رابع هذه الأسس فهو عدم اهتمام الخطيب بمن ليس ندا له. فمن القبيح "أن يضر الإنسان شخصاً محتقرا".

ومن الواضح بالطبع أن مفكرنا لم يكن يهدف إلى وضع نظرية فى الخطابة مماثلة لنظريات أفلاطون أو أرسطو من فلاسفة اليونان، بل هى آراء جزئية فى آداب التنافس بين الخطباء تكشف عن فلسفة صاحبها ووجهة نظره فى أهمية الخطابة وما ينبغى أن يسود بين محترفيها من قواعد.

ثالثاً — آراؤه الأخلاقية :

يدور فكر بتاح الأخلاقى حول "ماعت – Maat"، وهى الكلمة المستخدمة عند ا لمصريين القدا مى للدلالة على كل ما يفيد العدل والنظام والخير والصلاح أو للدلالة على الحقيقة عموماً. لقد كانت "ماعت" فى الفكر المصرى القديم مشابهة "لمثال الخير" عند أفلاطون، فقد كانت بمثابة إله الشمس نفسه، ومن ثم كان إشعاعها من أعلى، وكما كان "مثال الخير" الأفلاطونى هو واهب الوجود والصلاحية للمثل والأشياء، لم تكن "ماعت" إذن عند المصريين مجرد صفة تلصق بالأشياء الجديرة بالمدح عندهم، بل كانت قوة روحية ما ورائية منبثة فى كل شىء. وقد أدرك المصرى القديم ذلك وانعكس هذا الإدراك على حياته الاجتماعية

obeikandl.com

المعيار السديد، فإن للصديق بعض الحقوق على صديقه أهمها أن يكرمه ويغدق عليه مما يملك، ويعبر بتاح عن ذلك بقوله لابنه "أشبع أصدقاءك بما جد لك كإنسان نال الحظوة عند الإله (الملك) ومن الحزم أن تفعل ذلك إذ ليس هناك إنسان يعرف مصيره إذا فكر فى الغد. فإذا أصابت المقربين مصيبة فإن الأصدقاء هم الذين لا يفتئون يقولون مرحباً له. . فعليك أن تستبقى ودهم لوقت السخط الذى يهدد الإنسان"[24].

وواضح أنه قد حدد هنا بعض منافع الصداقة، فالصداقة ليست غاية فى ذاتها وإنما هى وسيلة لمنافع كثيرة تترتب عليها منها انتظار وقفة الأصدقاء إلى جانب صديقهم فى أوقات السخط والشدة.

ونجد مثل هذا الاهتمام بفضيلة الصداقة عند فلاسفة اليونان وخاصة أرسطو الذى خصص باباً كاملا من كتابه "الأخلاق إلى نيقوماخوس" للحديث عنها، وقد بلغ من تقديره لها وإقراره بأهميتها أن قال : أنها لو سادت بين المواطنين فى الدولة لما احتجنا لتطبيق العدالة[25].

وقد تميزت نظرية الصداقة عند أسطو بأنه قد ميز بين صداقة المنفعة والصداقة الحقة، وأكد أن الصداقة الحقيقية هى ما تكون لذات الصداقة ولا ترتبط بمنفعة أو بلذة، لأن الصداقة إذا ما ارتبطت بالمنفعة أو باللذة تنتهى حتماً بانتهاء المنفعة أو بانقضاء اللذة، أما الصداقة الحقيقية أو ما يسميه صداقة الخير فهى دائمة.

وإذا كان مفكرنا بتاح حوتب قد دعا إلى الكرم مع الأصدقاء تحسباً لغوائل الزمان فإن هذه ليست بمنفعة فردية أنانية تنقضى سريعاً – بالمعنى الذى قصده أرسطو فى حديثه عن صداقة المنفعة – وإنما هى المنفعة الدائمة. وليس من شك فى أن أى فضيلة أخلاقية لابد أن يكون لها نفعها فى الحياة الاجتماعية للأفراد. والمهم هو مدى عمومية نفعها ومدى بعد هذه المنفعة عن تحقيق مصلحة ذاتية أنانية تتعارض مع خير وصالح المجتمع ككل.

ولاشك فى أن مفكرنا قد أدرك كل هذه المعانى حينما وضع محاذير ينبغى للصديق أن يتجنبها حتى تدوم الصداقة، وكان أهم ما حذر منه – باعتباره محققاً للذة أنانية قصيرة وباعتباره مفسدا للصداقة – هو الاقتراب من النساء فى بيوت الأصدقاء، فقال فى إحدى فقرات كتابه : "إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله سيدا أو أخاً أو صاحباً فاحذر القرب من النساء فإن المكان الذى هن فيه ليس بالحسن. ومن أجل هذا يذهب ألف إلى الهلاك"[26].

ويتضح من هذه الكلمات أن بتاح قد أراد أن يورث ابنه قاعدة سلوكية هامة حينما حذره من الاقتراب من أماكن السيدات فى منازل أصدقائه، فالاختلاط بهن لا يفسد الصداقة فحسب بل قد يؤدى إلى الهلاك والموت، إذ أن "ألف رجل قد يذهب بسبب متعة برهة قصيرة تضيع كالحلم ولا يجنى الإنسان من معرفتهن غير الموت"[27].

ويقابل هذا التحذير من النساء عند بتاح دعوته إلى ضرورة الزواج وتكوين الأسرة، فالعلاقة بين الرجل والمرأة، وبين الأب والأبناء تمثل روابط على أعظم جانب من الأهمية فى نظره وفى إطار عصره، فهو ينصح ابنه قائلا : "إذا كنت رجلا ذا مكانة، فأسس لنفسك بيتاً، وأحبب زوجتك فى البيت كما يجب، وعليك أن تملأ بطنها وتستر ظهرها، والعطور التى هى دواء أعضائها، واشرح قلبها طالما عاشت، فإنها حقل مثمر لربها"[28].

وليس أفضل من هذه الكلمات تعبيرا عما ينبغى أن يكون عليه الرجل فى بيته ومع زوجته، فقد أدرك بتاح كل فضائل الرجل فى منزله، وعبر أبلغ تعبير عن الصورة الراقية التى وصلت إليها الحضارة المصرية القديمة فى تقدير العلاقة الزوجية والروابط الأسرية التى عدت – كما يعبر عن ذلك فى الفقرة السابقة – ضرورية ليس فقط لدى عامة الناس، بل لدى خاصتهم كذلك. وهنا تبدو "ماعت" أى تطبيق العدالة والنظام داخل البيت وبين أفراد الأسرة فتسود العلاقة بين الزوج والزوجة، حيث لا ينبغى أن يقصر الرجل فى أداء أى حق من حقوق زوجته

المعلومة وهى الحب والكساء والأكل والعطر، فالزوجة هى الحقل المثمر لزوجها.

وهو يطالب الرجل أيضا فى عبارة رقيقة بأن يكون ليناً فى معاملة زوجته ولا يعنفها حينما يقول : "إذا تزوجت امرأة فلا تعنفها بل دعها منشرحة الصدر أكثر من نساء بلدها، فإنها تستقيم كثيرا إذا كان الحبل لها ليناً ولا تنفرها، بل قدم لها ما تستحسنه إذ بسرورها تدبر الأمور"[29].

والجدير بالذكر أن هذا التقدير للروابط الأسرية وخاصة للعلاقة بين الزوج والزوجة – باعتبارها جوهر المجتمع المترابط والعلاقات الاجتماعية الناجحة – لم نشهده لدى فلاسفة اليونان بعد أكثر من عشرين قرناً تفصل بينهم وبين بتاح حوتب، بل تبدو نظرة الفيلسوف الغربى عموماً – منذ التراث اليونانى وإلى اليوم – إلى تلك العلاقة الزوجية نظرة متدنية هامشية عما شهدناه ونشهده فى التراث الشرقى قديمه وحديثه.

وتمتد نظرة بتاح لتشمل إلى جانب الاهتمام بالعلاقة الزوجية، الاهتمام بالأهل فهم الامتداد الطبيعى للأسرة الصغيره حينما يقول : "أحسن العمل مع أهلك كما يناسب لأن هذا فعل المرء الذى يفضله الإله"[30] ويضيف "من قصر فى حسن العمل مع أهله يقال عنه أنه رجل ملعون"[31].

وتمتد نظرته كذلك لتشمل الدائرة الاجتماعية الأوسع، فبعد الاهتمام بالأهل فهم الامتداد الطبيعى للأسرة الصغيرة يكون الاهتمام بالجيران وفى هذا يقول بتاح : "لا تكن سيء الخلق مع جيرانك، والصفح عن السفيه خير من القسوة، فإن أخطأ الزعلان فى حق جيرانه لا يدرك كيف يوجه كلامه، وبدل أن تكون الإساءة قليلة ينشأ عنها الكدر مكان الصفو"[32].

وليس أعظم من قول بتاح فى العلاقة بين الناس عموماً وكف غضب الفرد عن الآخرين : "إذا غضبت ولا دواء لذلك، أو كنت معنفاً من قبل أحد فصد عنه بوجهك ولا تفكر فيه متى كف الكلام عنك"[33]. وكأن بتاح هنا يعبر عن قول الله

سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم : ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[34].

وفضلا عن ذلك، فإن مفكرنا يطالب بأن يلتزم المرء فى مسلكه مع الناس عموماً المرح والابتهاج، وألا يكون عبوساً أمامهم فهو يقول : "كن باش الوجه مادمت حياً"[35]. وقد حض على أن يكون المرء عادلا مع نفسه، فلا ضير فى أن يمرح ويلهو ويقتنص الفرص للتمتع بألوان الطعام اللذيذة، وسماع الموسيقى الجميلة ومزاولة الرقص والتلهى بالألعاب، أو التلذذ بمشاهدة الحدائق الغناء والرياضة بالصيد فى المستنقعات، لا ضير فى أن يتلذذ المرء بكل هذه المتع التى كانت شائعة فى عصره بشرط أن يتبع فى هذا ما يمليه عليه عقله وقلبه.

وهو يقول معبرا عن ذلك : "اتبع لبك (أى عقلك أو قلبك) مادمت حياً، ولا تفعلن أكثر مما قيل لك، ولا تنقص من الوقت الذى تتبع فيه قلبك ولا تشغلن نفسك يوميا بغير ما يتطلبه بيتك، وعندما يواتيك الثراء متع نفسك، لأن الثراء لا تتم فائدته إذا كان صاحبه معذباً"[36].

وهذه الفقرة التى يطالب فيها بتاح بتحكيم العقل (أو العقل) فى السلوك تؤدى بنا إلى الحديث عن فضيلة ضبط النفس، التى هى مركز الدائرة فى آراء بتاح الأخلاقية والتى يتحقق بمقتضاها للفرد كما للمجتمع العدالة والنظام (ماعت).

وهو يعبر عن هذه الفضيلة الأخلاقية الهامة حينما يخاطب ابنه قائلا : "إذا أردت أن يكون خلقك محمودا، وأن تحرر نفسك مما هو قبيح، فاحذر الشراهة فإنها مرض مملوء بالداء ولا يشفى. والصداقة معها مستحيلة، فإنها تجعل الصديق العذب مرا، وتقصى ذا الثقة عن سيده، وتجعل كلا من الأب والأم قبيحاً وكذلك الأخوال، وتفصل الزوج عن زوجته. وهى حزمة من كل أنواع الشر وحقيبة من كل شىء مرذول. وإن الرجل الذى يتبع طريقة حقة فى سلوكه ويسير على الصراط السوى يعيش طويلا، ويكسب الغنى بذلك، ولكن الشره لا قبر له"[37]. ويضيف إلى ما سبق قوله : "لا تكونن شرهاً فى القسمة، ولا تكونن ملحاً إلا فى

حقك، ولا تطمعن فى مال أقاربك.. فإن القليل الذى اختلس منه يولد العداوة حتى عند صاحب الطبع اللين"[٢٨].

وإذا تأملنا هذه الفقرة جيدا فسنجد هذا الربط الحاسم بين الخلق المحمود وتحرير النفس من القبح (أى من الشراهة). ومن ثم فقد أدرك بتاح العلاقة الوطيدة بين ضبط النفس وبين التحلى بكل ما هو فاضل ومحمود أى بكل ما هو أخلاقى، فالتحلى بهذه الفضيلة من شأنه – كما أشارت العبارات السابقة لمفكرنا – الحفاظ على الصداقة، والحفاظ على الثقة بين الفرد وسيده، والحفاظ على الحب الأسرى بين الزوج والزوجة وبين الآباء والأبناء والأمهات والأخوال... إلخ.

إن تحذير بتاح من الشراهة ومطالبته بالتالى بضبط النفس فى كل الأحوال هو بلا شك إدراك لأهم أسس الأخلاقية على مر الزمان. وليس أدل على ذلك من أن الفكر اليونانى حينما بدأ يتجه بتطور بطئ نحو الإدراك الكامل لأهمية ضبط النفس. وقد بدأ هذا التوجه من هيراقليطس الذى فرق بين النفس الجافة والنفس الرطبة، وقال : "إن النفس الجافة هى البعيدة عن الشراهة والشهوة وهى الأحكم والأفضل"[٢٩].

ثم كانت أعظم دعوة بعد ذلك لسقراط وتلميذه أفلاطون هى الدعوة إلى ضبط النفس، فمعرفة النفس عند سقراط لا تكون إلا بمعرفة ما يناسبها وباعتبار أن جوهر النفس الإنسانية هو العقل فما يناسبها هو أن تدرك الخير وتفعله، وإدراك الخير عنده يعنى تماماً ضبط النفس، فلا تظلم ولا تكذب ولا تجبن ولا تفعل أى شر طالما أدركت الخير[٣٠].

وفى نفس الاتجاه سار أفلاطون، فقد كانت فضيلة ضبط النفس هى أحد أحجار الزوايا فى فلسفته عامة، وفلسفته الأخلاقية على وجه الخصوص، فقد تحدث فى "الجمهورية" عن العدالة داخل النفس الفردية، حينما قسم النفس إلى ثلاثة أجزاء هى النفس الشهوانية، والنفس الغضبية والنفس العاقلة، وربط بين أخلاقية الفرد وبين تحقيق العدالة داخل النفس بأقسامها الثلاثة عن طريق

تحلى النفس الشهوانية بفضيلة العفة، والغضبية بفضيلة الشجاعة، والعاقلة بفضيلة الحكمة[٤١].

وهكذا نجد التشابه واضحاً بين أفلاطون وبتاح حوتب فى إدراكهما لضرورة تحلى الفرد بالأخلاق الحميدة عن طريق تحقيق العدالة داخل نفسه بمحاولة ضبطها بتحكيم العقل فى كل سلوكيات النفس، وفى إدراكهما أن كبح جماح شهوانية النفس لا يكون إلا بالاعتدال فى ممارسة الشهوة والحذر من الشراهة كما قال بتاح، أو بتحليها بفضيلة العفة، كما قال أفلاطون. وفى الحالين نجد مطالبة بتاح وأفلاطون بضرورة عفة النفس بألا تطمع فيما لا حق لها فيه.

وبالطبع فقد جاءت تحليلات أفلاطون المستفيضة فيما يخص فضائل النفس الغضبية والعاقلة، وربطه بين تلك الفضائل، وبين أجزاء النفس وطبقات الدولة، جاءت أكثر عمقاً وأكثر تفصيلا مما وجدناه عند بتاح حوتب، حيث جاء ربط الأخير بين فضيلة ضبط النفس وبين فكره السياسى ضعيفاً أحياناً، ويتسم باللاأخلاقية أحياناً أخرى، فها هو يطالب ابنه مثلا بأن يحنى ظهره لمن هو أعلى منه وأن يحترم رئيسه حتى يبقى بيته بخير ويأتيه مرتبه فى حينه[٤٢]، بل يحضه على عدم مقاومته والاستسلام لأوامره "فمقاومتك من فى يده السلطة قبيح"[٤٣].

وفى هذا يبدو مدى اهتمام مفكرنا بكسب ثقة الرؤساء ولو أتى ذلك على حساب حزم الفرد وقوته فى أداء عمله "فالإنسان – فى نظره – يعيش مادام متساهلا"[٤٤]. ولاشك أن هذا يعكس واقعاً كان يعيشه بتاح وهو تسلط الرؤساء فى الإدارات المختلفة وتعسفهم مع من هم دونهم فى المكانة الإدارية. وبدلا من أن يدعوهم إلى مقاومة هذا التسلط دعى إلى التساهل معهم حرصاً على المنصب أو الوظيفة وما تدره من مرتب.

ولا ينبغى أن نسارع إلى الحكم على بتاح بالتساهل المطلق مع هذا التسلط الادارى، إذ على الرغم من أنه لم يدع بوضوح إلى مقاومته، فإنه حاول أن يخفف

obeikandl.com

منه عن طريق نصحه لابنه ولكل من يتعاملون مع الناس فى تلك المناصب الإدارية العليا بأن يكون رحيماً معهم، وأن لا يسىء معاملتهم وأن يحسن الاستماع إلى شكواهم ومظالمهم كاملة، فهو يقول : "إذا كنت ممن يقدم لهم الشكاوى، فكن شفيقاً حينما تسمع كلام المتظلم، ولا تسئ معاملته إلى أن يغسل بطنه، وإلى أن يقول ما قد جاء من أجله، وإن المتظلم يحب كثيرا أن يهز الإنسان رأسه إلى كلامه إلى أن ينتهى مما جاء من أجله.. وإن مجلساً حسناً يسر القلب"[150].

وليس هناك من شك – كما يقول برستيد – فى أن تكون هذه الشفقة مع المظلوم وسماع شكواه ذات علاقة وطيدة بالمعاملة الحسنة المبنية على الحق والعدالة التى أخذت مكانة سامية فى فكر بتاح الأخلاقى والسياسى[151].

لكن المتأمل لتلك الفقرة السابقة يلاحظ اقتصار مفكرنا على المقاومة السلبية للظلم، إذ أن كل ما يطلبه من الإدراى الفاضل هو أن يستمع إلى المتظلم "إلى أن يغسل بطنه" أى حتى يزيل كل الهموم التى تثقل قلبه وينتهى من كل شكواه، وأن يهز رأسه كعلامة على حسن الاستماع إلى الشاكى "فإن مجلساً حسناً يسر القلب"، وهذه هى الخلاصة أن يسر الشاكى لمجرد أن شكى واستمع المسئول إلى شكواه.

وبالطبع فإن هذا الفهم للعدالة ليس دقيقاً، إذ أن العدالة لا تكتمل إلا إذا أخذ المظلوم حقه من الظالم عن طريق تحقيق يجريه هذا المسئول مع الظالم الذى جاء الشاكى يشكوه طلباً لرفع الظلم عنه وليس لمجرد المجلس الحسن وغسل الهموم.

وعلى أى حال، فلقد كان بتاح فيما أبداه من آراء قرن فيها بين الأخلاق والسياسة يعبر عن عصر كانت الحرية فيه – بالمعنى الحديث لها – لا يملكها إلا فردا واحدا فقط هو الملك (الإله). وكان الجميع ممن هم دونه سعداء بإطاعتهم له وراضون بانطوائهم تحت لوائه طالما أن البلاد بخير وفى تقدم، ولم يمنعهم هذا الرضا والخضوع للملك من أن يثوروا تعبيرا عن السخط إذا ما ساءت أحوال البلاد وعم الفساد، ولا أدل على ذلك من شكاوى الفلاح الفصيح، ومن النظر فى

فكر وكتابات أيبوور.

ولا أشك فى أن بتاح وهو يكتب هذه الخطرات كان واعياً بأهميتها الشديدة، وبأنها تمثل حجرا لا غنى عنه فى بناء الفكر الأخلاقى فى مصر القديمة لسنوات عديدة ستأتى بعده، وكان واعياً بأنه إنما يعبر عن فكر أخلاقى رفيع المستوى بالنسبة للفرد وللمجتمع ربما كتب له الخلود. وهو يعبر عن ذلك حينما يقول لابنه فى ختام كتابه "إذا سمعت هذه النصائح التى ذكرتها لك فإن حكمتك تصير فى تقدم حقيقى ومهما تكن فإنها الواسطة للوصول إلى الخير. وهذا هو الذى جعلها ذات قيمة وجعل إدراكها يبعد عن لغط الناس. وما أحسن ترتيبها فى كل مجال ذكرت فيه من غير تغيير يدخلها فى هذه الدنيا أبد الآبدين، فهى النسيج الذى يصنع للتحسين وبه يتكلم الإنسان فيتعلم أسلوب الكلام إذ بعد فهمها يصير أستاذا. والذى يكون له إستعداد لسماع هذا الكلام ويصغى إليه ينال النجاح الذى يبلغ به الدرجة الرفيعة ويضمن له الكمال السرمدى، فلا شىء يهوله أبدا إذ بالعلوم تكون إدارته ثابتة ويكون بها فى الدنيا سعيدا، فالعالم شبعان بمعرفته، كبير بفضله، لسانه طوع عقله، وشفتاه صادقتان متى تكلم، وعيناه متى نظرتا، وأذناه متى سمعتا، ويكون فائدة لابنه فيفعل الصواب بدون خطأ[٤٧].

وقد أكد بتاح فى هذه الفقرة المطولة على كل ما سبق أن قدمه من آراء جزئية فى الفضائل، وأكد على أن من يتخذ منها منهاجاً له ينال النجاح والدرجات الرفيعة والكمال السرمدى. ولقد اتخذ منها المصريون فعلا منهاجاً لحياتهم، فصارت جزءا من الحكمة التقليدية فى مصر القديمة، ويتضح ذلك من حقيقة أنها كان يعمل بها حوالى أربعمائة سنة بعد ذلك، وليس أدل على ذلك من هذه الوثيقة التى يطلق عليها "تعليمات إلى ميريكرع"، فالذى يطلع عليها يجد إشارات واضحة إلى الأخذ بتعاليم بتاح حوتب باعتبارها تعاليم الأجداد[٤٨]. ولا أغالى إن قلت أنها ظلت تفعل فعلها وتؤثر فى سلوك المصريين وفى مفكريهم بعد ذلك بكثير فى عصر الدولتين الوسطى والحديثة لمصر القديمة، بل وحتى الآن.

رابعاً – تعقيب :

يستطيع المرء من النظر فيما سبق عرضه من آراء لبتاح حوتب أن يؤكد بأنه كان داعياً إلى نوع من الأخلاق العملية التى تعبر عن القيم التى سادت عصر الدولة القديمة التى ازداد فيها طموح الأفراد بدرجة كبيرة، وهو ما يتضح من الحاح بتاح على ابنه بأن يبذل كل ما وسعه من جهد ليتقدم فى الحياة وأنه يمكنه الحصول على ما يبغيه باتباع المبادئ السابقة.

ولما كانت هذه المبادئ نفسها تتطلب من الأفراد ألا يكونوا ممن يقلدون غيرهم بل يكونوا هم البادئون بالعمل، فعليه إذن أن يكون طموحاً غير هياب حتى ينال الاحترام والثروة والمركز، فالنظام الكونى قد أعد مكاناً لمواهب الرجل "الحكيم" وميزه عن الرجل "الجاهل"(٤٩).

وجوهر الحكمة عنده، كما قدمنا هو الالتزام دائماً بالنظام والعدالة (ماعت) على أساس من ضبط النفس.

وعلى الرغم من أن بتاح حوتب قد عاش فى الألف الثالثة قبل الميلاد، إلا أن ما قدمه من آراء أخلاقية قد بلغ حدا بعيدا من النضج، وجمع فى كتابه – على حد تعبير توملين – الفكر الثاقب والرأى السديد والأمور الدنيوية المقررة فى آن واحد (٥٠).

لقد دلل بتاح على عمق فكره الأخلاقى وسموه حينما ربط – كما أوضحنا – بين الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية بروابط وثيقة، فلم تكن دعوته لنبذ الشراهة منفصلة عن الدعوة إلى روابط أسرية تقوم على الحب المتبادل بين الزوج والزوجة والأبناء.

وإذا كان قد أعطى المكانة العليا فى الأسرة للرجل، فإن هذا مبدأ يشاركه فيه معظم فلاسفة الأخلاق من أصحاب المذاهب الأخلاقية الكبرى، فها هو أرسطو يرفض دعوة أستاذه أفلاطون إلى المساواة بين الرجل والمرأة ويرفض

مطالبته بمشاركة المرأة فى الجندية والحكم، ويرى ضرورة أن يكون الرجل هو السيد فى أسرته وأن تنحصر وظيفة المرأة فى رعاية أولادها وشئون منزلها[٥١].

أما دعوة بتاح إلى بعض الفضائل بدافع المنفعة مما يبدو منه أحياناً أنه يكاد يوحد بين الفضيلة والمنفعة، فهى دعوة أصيلة – رغم عدم قصده الواضح إليها –، فالكثيرون من أصحاب المذاهب الأخلاقية الغربية قد دعوا إلى الربط بين الفضيلة والمنفعة منذ زعماء السوفسطائيين فى العصر اليونانى الذين قرروا نسبية الفضائل وربط خيرية الفعل بما يعود بالنفع على صاحبه، وحتى ظهور ما يسمى بمذهب المنفعة الفردية لدى توماس هوبز، والمنفعة العامة لدى جون ستيوارت مل واتباعهما فى العصر الحديث.

وعلى أى حال، فإن تلك التعاليم لبتاح حوتب قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن المصرى القديم قد استطاع أن يؤسس مجتمعه الحضارى الراقى فى ضوء معايير ومفاهيم أخلاقية سامية وناضجة وواضحة المعالم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد.

وقد أثبت بتاح أنه مفكر من طراز فريد فى تلك الفترة، حيث تميزت آراؤه – على حد تعبير ويلسون – بالنزعة الانفرادية المليئة بالحركة[٥٢]، والتى يغلب عليها الثقة فى النفس والاطمئنان إلى المستقبل وحب التقدم إلى الأمام.

*** ***

obeikandl.com

هوامش الفصل ومراجعه

١- ادولف ارمان : ديانة مصر القديمة، ترجمة د. عبدالمنعم أبو بكر ود. محمد أنور شكرى، نشره مصطفى البابى الحلبى، القاهرة بدون تاريخ، ص ١٧٨.

٢- جيمس هنرى برستيد : فجر الضمير، ترجمة د. سليم حسن، نشرة مكتبة مصر، بدون تاريخ، ص ١٤٢.

٣- ارمان : نفس المرجع السابق، ص ١٧٨.

٤- أنظر : ارمان : نفس المرجع السابق، ص ١٧٨. وبرستيد : نفس المرجع السابق، ص ١٤٢ وما بعدها. وكذلك : د. أحمد بدوى : فى موكب الشمس، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ١٩٠.

والجدير بالذكر أن الحفريات قد أثبتت وجود بتاح حوتب، ودل على قبره فى سقارة، حيث قبور الأسرة الخامسة فهو شخص تاريخى (انظر : عبدالقادر حمزة : على هامش التاريخ المصرى القديم، مجلد ٢، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤١م، ص ١٥١).

٥- يجدر الإشارة هنا إلى أن المؤرخين قد كشفوا عن أن أقدم حكم وصلت إلينا من مصر القديمة هى التى تعرف باسم "مواعظ كاجمنة " التى كتبها وزير الملك حونى Houni ليهذب بها أبناءه ومنهم كاجمنة الذى سميت المواعظ باسمه. وما عثر عليه منها قليل، وأهم ما فيها مدح فضيلة الصدق ورفع شأن مهارة الكلام ورفض السكر والشراهة، والدعوة إلى الاعتدال. (انظر فى عرض هذه المواعظ : عبدالقادر حمزة، على هامش التاريخ المصرى القديم، ص 145، 146. وراجع تعريب هذه التعاليم فى : أحمد كمال : الحضارة القديمة، الجزء الأول : مصر، نشرة مجلة الجامعة المصرية، بدون تاريخ، ص 286 – 287). ولكن تعاليم بتاح جاءت أكثر شمولا وتنوعاً وعمقاً مما أكسبها الشهرة، وأكسب

obeikandl.com

صاحبها الريادة فى مجال الفكر الأخلاقى فى مصر القديمة.

6- أنظر : أدولف ارمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ترجمه وراجعه د. عبدالمنعم أبو بكر ومحرم كمال، مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ، ص 175.

7- أنظر : هنرى توماس : أعلام الفلاسفة (كيف نفهمهم)، ترجمة مترى أمين، دار النهضة العربية، 1964م، ص 7، 8.

8- أنظر : د. أحمد بدوى، فى موكب الشمس، ص 190.

9- أنظر : عبدالقادر حمزة، نفس المرجع السابق، ص 151.

وكذلك : برستيد : نفس المرجع السابق، ص 143. وسليم حسن : مصر القديمة، الجزء الثانى، مطبعة كوثر، القاهرة، بدون تاريخ، ص 417.

10- أحمد كمال : نفس المرجع السابق، ص 286.

11- إن المقصود بالحجر الأخضر الكريم هنا هو الزمرد، وقد ورد ذلك فى كتاب : جون ويلسون : الحضارة المصرية، ترجمة : د. أحمد فخرى، مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ، ص 171 . وقد ورد فى ترجمة أحمد كمال أنه الزبرجد، (انظر أحمد كمال : نفس المرجع السابق، ص 288).

12- سليم حسن : مصر القديمة، جـ 2، ص 417.

13- أنظر : سلامة موسى : تراث مصر الفكرى والفلسفى فى عهد الفراعنة، بحث نشر فى مجلة المقتطف، عدد سبتمبر 1936م بعنوان "تراث مصر القديمة"، ص 95.

14- برستيد، نفس المرجع السابق، ص 143، 144.

15- نفسه، ص 144.

obeikandl.com

16- نفسه، ص 144.

17- نفسه، ص 145.

18- نفسه.

19- نفسه.

20- نفسه.

21- سليم حسن : مصر القديمة، جـ 2، ص 417 – 418.

22- نفسه، ص 418.

23- نفسه، ص 423.

24- نفسه، ص 422.

25- أنظر : د. أميرة حلمى مطر : الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1977م، ص 337.

26- سليم حسن : نفس المرجع السابق، ص 421.

27- برستيد : نفس المرجع السابق، ص 148.

28- سليم حسن : نفس المرجع السابق، ص 422.

29- أحمد كمال : نفس المرجع السابق، ص 295.

30- نفسه، ص 292.

وقد فضلنا استخدام كلمة "الإله" بدلا من "اللّه" التى يستخدمها المترجم هنا لأننا نعتقد أن لفظ الجلالة "اللّه" لا يصح أن يطلق إلا حين الحديث فى الأديان السماوية وبالذات حينما يكون الحديث إسلامياً.

31- نفسه، ص 292.

obeikandl.com

32- نفسه.

33- نفسه، ص 293.

34- القرآن الكريم، سورة فصلت، الآية 34.

35- برستيد : نفسه، ص 149.

36- نفسه.

37- سليم حسن : نفس المرجع السابق، ص 421 – 422.

38- نفسه، ص 422.

39- أنظر : الترجمة العربية لشذرات هيراقليطس في : د. أحمد فؤاد الأهوانى : فجر الفلسفة اليونانية، مكتبة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة، الطبعة الأولى 1954م، شذرة 72، 73، 74، ص 108، 109.

40- أنظر : أميرة حلمى مطر : نفس المرجع السابق، ص 155 – 156.

41- See : Plato : The Republic, Book 4, PP, 428 – 444, Eng, Trans, by H, D, P, Lee, The Penguin Books, London, 1962 pp, 174 – 198.

42- أنظر : الفقرة التى يتحدث فيها بتاح عن احترام الرؤساء فى : سليم حسن، نفس المرجع السابق، ص 423.

43- نفس المرجع السابق، ص 423.

44- نفسه.

45- نفسه، ص 421.

46- برستيد : فجر الضمير، الترجمة العربية، ص 149.

47- أحمد كمال : نفس المرجع السابق، ص 295.

obeikandi.com

48- أنظر : أ. و. ف توملين : فلاسفة الشرق، ترجمة عبدالحميد سليم، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ، ص 54.

49- جون ويلسون : نفس المرجع السابق، ص 168 – 169.

50- توملين : نفس المرجع السابق، ص 53.

51- See : Aristole : The Politics, Book I, Eng. Trans, by T, A, Sinclair, Penguin Books, London, 1977, pp, 45 – 54.

52- جون ويلسون، نفس المرجع السابق، ص 169.

obeikandl.com